الفصل العاشر

النزاع بين المسيحية وبين الحكام والمجتمع

(ا) كيف عرقل هذا النزاع من انتشار المسيحية – المسئوليات – ما رفضه المسيحيون وما فرضه عليهم الحكام – التعارض بين المسيحية وبين المجتمع – المسيحيون أمام الرأى العام – أهمية الرأى العام بالنسبة إلى المسيحية من الناحية العملية .

(ب) وجهة نظر الحكام تتضح وتثبت خلال القرن الثالث : المسيحية تعد ضرباً من ضروب الفوضوية – الأباطرة الذين اضطهدوا المسيحية – لماذا فشل الاضطهاد – كيف مهد هذا الاضطهاد السبيل للتحول الحاسم فى الدولة وفى المجتمع – الحل الوسط الذى جاء به قسطنطين ومرسوم ميلانو – الأسباب – الشروط المفروضة وما تميزت به من عدم استقرار .

(حـ) تنازلات الكنيسة – حدودها – موقف قسطنطين لم يكن بالموقف الذى يمكن التمسك به والثبات عليه – أسباب ذلك – كنيسة الدولة فى نهاية القرن الرابع – تهافت الوثنية – مقاومة الطبقات الأرستقراطية أهل الريف وكيف كانت مسيحيتهم ظاهرية فحسب .

(١)

تأخر انتشار المسيحية فترة ما ، وبدت الديانة الجديدة وكأنها آخذة فى سبيل التدهور بسبب العداوة العنيفة التى أظهرها تجاهها المجتمع الوثنى وحكومة روما ، تلك العداوة التى اتخذت لها ثوباً مما نسميه بـ « الاضطهادات[١] » .

وكان لكل من الطرفين فى النزاع بين الكنيسة والدولة قسطه من المسئولية . فمسيحيو العهد الأول آمنوا بأن نهاية العالم وشيكة الوقوع ، وتطلعوا بآمالهم إلى يوم القيامة ؛ فقل بطبيعة الحال اهتمامهم بواجبات وهموم الحياة الدنيوية ، وأصبح حب مملكة القدس السماوية فى قلوبهم يضر بمصالح الوطن الرومانى بصورة واضحة : كانت الخدمة العسكرية مثلا بغيضة إليهم لأنها تنطوى على فروض وثنية ، ثم لأنهم كرهوا الحرب وما يعانى الناس منها ؛ وبدت لهم مشاركتهم فى الخدمة المدنية وكأنها شىء لا جدوى فيه . ثم أصبحوا يرفضون فى عناد – على الأخص – الإسهام فى كل مظاهر التأييد التى كانت تطلبها حكومة الإمبراطورية احتجاجاً على طابعها الدينى الوثنى العام . وكان ضميرهم الدينى حساسًا بالغ الحساسية يضطرهم إلى الرد بـ « عدم الاستطاعة » على الكثير من المتطلبات العادية للحياة المدنية العامة . ولم تكن الدولة الوثنية لتستطيع التسامح إزاء موقف هؤلاء القوم الذين ازداد عددهم يوماً بعد يوم ، والذين أصبحوا

---

(١) كانت الاضطهادات التى لاقاها المسيحيون موضوع دراسات عديدة . وعلينا أن نشير فى هذا الصدد إلى أن كتاب « تاريخ الاضطهادات » ، لمؤلفه بول الازار ، يفتقد إلى روح النقد العلمى ، وإن كان ذائع الصيت بين الأوساط المسيحية الكاثوليكية .

وكأنهم يتخذون شعاراً لهم من عبارة ترتوليان المشهورة : « إنى قد اعتزلت المجتمع » .

ولا ندعى هنا أن المؤمنين جميعًا وقفوا من واجبات الحياة العامة ذلك الموقف المتعصب الشديد التعصب الذى وقفه أنامس من أمثال ترتوليان ؛ فهذا الداعية العنيف من دعاة المسيحية يعترف فى كتاباته بوجود مسيحيين بين الجد وفى وظائف الدولة ؛ غير أن إخلاص هؤلاء الصامت لم يكن ، فى نظر الحاكمين ، ليغفر لذنوب المسيحيين المتحمسين ولتصريحاتهم التى لم تتصف بالتعقل ، ثم لمظاهراتهم السافرة ولإعلانهم موقفهم الذى اتخذوه فى غير ما ترو أو مهاودة ؛ فكانوا العنوان السيىء للجماعة كلها ، لأن الحكام لم يروا غيرهم ولم يواجهوا فى المحاكم إلا أنماطاً منهم .

ومن ناحية أخرى ، كانت الدولة متسامحة حقيقة وبصورة واسعة تجاه الديانات غير الرسمية ؛ إلا أنها كانت تضع لهذا التسامح حدوداً تراها ضرورية من أجل الحفاظ على مقومات الحكم . مثال ذلك ما فرضته على سائر تلك الديانات من الاحترام لدين الدولة ؛ بحيث تستطيع أن تطلب من كل مواطن ، فى أى مناسبة ، الإبانة عن وطنيته فى يمين علنى باسم الإمبراطور المؤله ، وبالمشاركة فى القرابين المقدسة إلى « مقامه الأعلى » . ثم كانت على حذر شديد من الخرافات التى « تضلل نفوس البشر الضعيفة » . وقد رأت فى المسيحية خرافة من هذه الخرافات ، وصفها يلين بأنها « لا صورة لها ولا حدود » ؛ إذ جاءت إلى العالم الرومانى من الشرق ، حماسية وصوفية غريبة كل الغرابة عن سائر ما تعود الرومان أن يسموه بالديانات ، لا معابد لها ولا أصنام . وكانت الدولة ، أخيراً ، تتوجس خيفة من الجماعات السرية ؛ وكان القائمون بأمور

الأمن فيها يعلمون تمام العلم أن المسيحيين يجتمعون ليلا دون طلب الإذن اللازم لذلك .

أما المسيحيون ، فكانوا لا يقبلون أن يعتبر الناس جرماً ما يقومون به من التحايل على كيد الشيطان الذى يتخذ مظاهر الأصنام ، أو مقاومة ما يوحى به ، ومن التضحية بكل شيء فى سبيل الله والاجتماع من أجل تمجيده والصلاة له . وكان ضميرهم يعارض بقوة قاهرة ما تطلبه الدولة من التزامات وما يفرضه القانون من واجبات . وعبر « ترتوليان » أيضاً عن شعوّر صفوتهم فى قوله : « ليس الإنسان ملزماً باحترام شريعة ظالمة » . وكان الضمير المسيحى ، بطبيعة الحال ، هو الحكم فى صلاحية كل قانون . ولم تكن الدولة لتقبل مثل هذا التحرر .

وظهر التعارض بين وجهات النظر فى علاقات المسيحيين بالمجتمع مثلما ظهر فى علاقاتهم بالدولة : فهم لم يحترموا لهذا المجتمع ما كان يتمسك به من آراء ثابتة ومن تقاليد ، بل ومن مبادئ . وكان رجل مثل ترتوليان (الذى عاش فى نهاية القرن الثانى وبداية القرن الثالث) يصور الزواج والتكاثر على أنهما ضعف يرثى له أمام الغرائز الجسدية ؛ ولم يكن يجد خيرًا إلا فى القيم الروحية ، مهاجماً للملذات الدنيوية ، محطماً للفروق الاجتماعية ، جامعًا بين السيد والعبد فى إيمان واحد ، ملقيًا على سائر أوجه هذه الحياة الدنيا بجماع احتقاره .

ولم تخل جماعة المسيحيين بطبيعة الحال من قوم مسالمين ، يبدون الاستعداد الكافى للتوفيق بين عقيدتهم وبين الحياة الاجتماعية العامة .

ولا تنطوى ضلوعهم على حب التضحية والاستشهاد . غير أن عامة الشعب كانت ، على عادتها ، لا ترى من الكنيسة إلا هؤلاء الأشخاص الذين يفرضون

نفسهم على الجمهور بالضجيج والمعاندة . وكان الوثنيون من الطبقات الممتازة يرون فى تصريحاتهم الثورية خطرًا على أنفسهم وعلى ما يتمتعون به من امتيازات .

ولهذا نرى الدولة والمجتمع على حد سواء لا يستطيعان إدراكا لما انطوى عليه التعصب المسيحى من سمو ، فيشعران تجاهه بالغضب الشديد ؛ ويذهب الشعب إلى إظهار كراهيته العنيفة فيلقى على طائفة المسيحيين بكل ما اعتاد أن يلقيه على اليهود من مسبة ، على حين يعمل أصحاب السلطان على اضطهادها . وفى نهاية القرن الثانى أصبحت المشكلة فى وضع لا يمكن فيه الوصول إلى حل لها إلا بالقضاء على أحد طرفيها . وبدت المسيحية حقيقة وكأنها لا تستطيع دفاعاً أمام هجمات السلطات الحاكمة بكل ما يدفعها ويدعمها من رأى عام يكاد يكون ممثلا لجميع فئات الشعب : فالمثقفون كانوا يحتقرون المسحيين ، سواء رأوا فيهم يهودًا منحرفين أنكرتهم معابدهم ، أو أصحاب عقيدة لا تستحق تحمل مشقة دراستها . وعامة الناس كانوا يكرهونهم لغرابة أسلوب حياتهم ولبشاعة ما أشيع عن اجتماعاتهم من أخبار[1] .

وكانت هذه الكراهية التى اتخذت صورًا عنيفة السبب الأول الأساسى للاضطهادات . وكانت السلطات تتدخل لتهدئة الشهب ولإرضاء عواطف الجماهير العمياء ، فتقدم للمحاكمة أناس لم تكن لتهتم بأمرهم لولا ذلك حيث كانت تعلم تمام العلم أن خطرهم ليس بذى بال ، وأن تعصبهم الدينى لا تصحبه طقوس دموية ولا فضائح خلقية كالتى تنسبها إليهم الإشاعات المهولة ، وإن

(١) كان أصحاب النيات السيئة يلقون عليهم بالتهم التى وجهت من قبل إلى اليهودية : من التضحية بالأطفال ومن اجتماعات سرية تهدف إلى التحلل الخليع وتصاحبها أعمال مشينة مقززة .

كانوا يستحقون اللوم والتأنيب على هذا التعصب . غير أن رفض المسيحيين إقامة الشعائر « باسم ألوهية الإمبراطور » وامتناعهم عن تمجيد صورته بإحراق البخور أمامها أديا إلى اتهامهم بالتآمر عليه ، وهو اتهام كان الحكم فيه ، إذا ثبت : القتل . لذلك نقرأ عن بعض الشهداء خلال القرن الثانى ، وخاصة فى آسيا الصغرى فى عهد تراجان ، وفى مدينة ليون تحت حكم مارك أوريل عام ١٧٦ [١] .

(ب)

ولم تتنبه الدولة كل التنبه إلى الخطر الاجتماعى الذى تشكله المسيحية إلا خلال القرن الثالث . ولكنها صارت تنظر إليها عندئذ على أنها نوع من الفوضوية . ولقد ظهرت أعنف أنواع العداوة للكنائس المسيحية لدى أحكم الأباطرة وأكثرهم إخلاصًا لواجبات منصبهم ، أى – حسب التعبير الحديث – أكثرهم وطنية . فنجد رجالا من أمثال : ديس ، وفاليريان ، وجالير ، وديو كليسيان ، يعقدون النية الصريحة ، فى النصف الثانى من ذلك القرن ، على القضاء قضاء مبرماً على الكنيسة والإكليروس وكل أثر للدين الجديد ، فيحملون الناس على الارتداد عنه ، مستخدمين التعذيب أو التهديد به . ولم يتورعوا فى سبيل تحقيق أهدافهم عن أقسى وسائل العنف ، بل عن القتل فى كثير من الأحيان . وكانت هناك تهم مدنية عديدة توجه فى آن واحد إلى المؤمنين لتهويل الأمر عليهم نذكر منها : الانتساب إلى دين غير مشروع ، والانتماء لجماعات

(١) وإنا لنترك جانبا ما سمى بـ « اضطهادات نيرون » ، إذ يبدو أنها لم تكن سوى نوع استثنائى من استخدام عواطف الجماهير لتحويل شبهة إحراق روما ، عام ٦٤ ، عن الإمبراطور .

سرية ، والتآمر على الحاكم ، ورفض إطاعة الأوامر – إن كانوا جندًا – ، والتهرب من واجبات الحياة العامة والخاصة ، بل ممارسة السحر . وعلى أى حال ، فإن سائر التهم كانت تتميز بقابليتها للتلاشى التام عندما يعلن المتهم المسيحى تخليه عن عقيدته . وهذا يدل دلالة صريحة على أن الغرض من كل الإجراءات القضائية لم يكن فى الواقع سوى القضاء على الديانة المسيحية ذاتها ولا شىء غيرها . وقد ظن البعض أن هذه الديانة حرمت بقانون خاص منذ عهد نيرون تحريماً قطعيًّا لا لبس فيه ؛ وثار جدل حول ذلك . ولكن الأمر لا يزال فى حاجة إلى الدليل الشافى ، وإن كنا لا نستبعد إمكان وقوعه . وفى الحقيقة ، كانت الإجراءات تسير وكأن الاعتراف باعتناق المسيحية يفترض فى حد ذاته جرائم يعاقب عليها بالقتل . وكانت الأساليب القضائية لدى الرومان تتصف على وجه عام بالقسوة . وبلغت فى ذلك أبعد حد بالنسبة إلى قضايا المسيحية ، لأن القضاة كانت لهم اليد المطلقة فى تقدير العقاب على من تثبت عليه تهمة التآمر ضد الحاكم . وقد استخدمت أكثر وسائل التعذيب وحشية لحث المسيحيين على الارتداد . وكان لمزاج القضاة الشخصى بطبيعة الحال أثره فى تخفيف ألوان التعذيب أو على العكس ، فى الزيادة من عنفها .

ولحسن حظ المسيحيين ، اتصفت مجهودات الحكام ضدهم دائما بعدم التناسق وبالتردد فى بعض الأحيان ؛ ولم تكن شاملة لكل أنحاء الإمبراطورية ، حتى فى أحلك أيام عهد ديوكليسيان ؛ وكذلك لم تطل الفترات التى اشتدت فيها ؛ بحيث استطاعت الكنيسة دائماً أن تلم شعثاً على أعقاب كل محنة من المحن التى مرت بها . وكان للاضطهاد ولا شك آثاره التى تجلت فى كثرة الشهداء ، بين صفوف الجماهير المسيحية المؤمنة لم يحقق إلا ضروباً من الردة المؤقتة ، وكان

ينتهى أحياناً إلى حماس دينى ينتشر بين الناس . وكثيرًا ما ترددت كلمة « ترتوليان » المشهورة التى رمى بها تحديًا فى وجه المضطهدين : « بذور المسيحية فى دم الشهداء المراق » وقد تحققت هذه النبوءة فى الواقع ، وإن سير الشهداء التى حفظت حتى عصرنا هذا لتصور لنا حالات كثيره غريبة من التحمس الدينى الجماعى . وكانت الكنيسة وعلى الأخص فى الفترات التى تتخلل أزماتها ، تستغل فى نشر دعوتها مفهوم استشهاد الشهداء من بينها .

وفى بداية القرن الرابع ، عقب فشل الاضطهادات التى قام بها ديوكليسيان ، استطاعت الدولة أن تدرك أن المسيحيين أصبحوا كثرة لا جدوى للعنف فى القضاء عليها . ومن ناحية أخرى كانت المشكلة – أن بحثت بحثاً صحيحًا – قد اتخذت وضعاً يختلف فى نظر هذه الدولة عن وضعها خلال القرن الثانى . ذلك أن المسيحية لم تعد فى هذا العصر دين صغار الناس والطبقات الدنيا من المجتمع : فلقد انضم إليها أشخاص من مختلف الطوائف والمستويات الاجتماعية . وبازدياد جماهير المؤمنين نشأ نوع من التوازن المطمئن فى رحاب الكنيسة ؛ إذ كف أعضاؤها عن ترقب نهاية العالم بين نهارهم وليلهم ؛ وأصبحوا يطوعون أنفسهم على قبول العادات بل الآراء الشائعة ؛ ودخلوا أفواجًا فى الجيش وفى الوظائف العامة ، دون أن يعارض الإكليروس فى ذلك . ورأى الناس أن الخلق والصبر المسيحيان يدعمان من سائر المبادئ الاجتماعية . وقبل كل هذا ، كانت جماعة المسيحيين تظهر للدولة فى صورة تسر الناظرين ، صورة الهيئة الموحدة المنتظمة ، التى يقودها رؤساء ذوو نفوذ مطلق ، ويتمثل فيها النظام المؤسس على حكومة معتمدة منسقة ، كما تظهر لديها الروح السياسية . وأخيرًا ، فقد تلاشت شيئًا فشيئًا الآراء المسبقة التى شاعت بين العامة خلال

القرنين الأول والثانى ضد الحياة المسيحية ، بعد أن اتسعت الكنيسة – بفضل عهود التسامح – فأصبحت مضطرة أكثرمن ذى قبل إلى أن تحيا جوانبه من حياتها فى وضح النهار .

وأصبح من المحتمل بعد ذلك أن يفكر الناس فى سبل التوفيق بين أطراف النزاع .

وهيأت الظروف الحل الوسط ، كما ساعدت على الإسراع به : فقد انتهى الأمر بالإمبراطور جالير– وكان أشد المضطهدين للمسيحية حماسًا – عام ٣١١ ، أن تكشف له عقم جهوده ، فاضطر إلى التراجع أمام العقبات التى أثارها لحكمه عناد الكنيسة الهائل ، واستسلم لفكرة التسامح مع المسحيين ، ثم مات بعد ذلك بفترة قصيرة . ورأى المسيحيون – وكانوا على حق فيما رأوا – أن تصريحه بالتسامح معهم كان إعلاناً لانتصار جماعتهم . ثم أصبح موته مجالا لتنافس عدد كبير من طالبى الحكم الذين حاول كل منهم استرضاء الأنصار وكسب أكبر قدر من التأييد بين طوائف الشعب المختلفة . وكانت تلك فرصة ذهبية للكنيسة تستطيع أن تبيع تأييدها ، معتمدة على ما تملكه من قوى وعلى عالميتها التى تجعل منها حليفاً يعتز به كل طالب للحكم . وكان أحد المتنافسين على العرش ، وهو قسطنطين ، رجلا موثوقاً به لديها ، بل رجلا سبق له تقديم الدلائل على نيته الحسنة تجاه المسيحية . ولم يكن قسطنطين قد تحول بعد إلى المسيحية . غير أنه كان ذا فكر تأليفى واسع الآفاق ؛ وكان – مثله فى ذلك مثل أبيه قسطنطين كلوروس الذى يروى أنه تجاهل ، خلال ولايته بلاد الجول ، آخر قوانين الاضطهاد – كان يوفق فى رحاب ضميره بين احترامه لدين الأجداد العتيق وبين خوفه من إله المسيحيين . ثم كان ، بالإضافة إلى ذلك ، يصل

الكثير من القسس الذين اعتادوا التردد على أبيه ، ويدرك مدى استعدادهم لمؤازرة الحكام ، ويعرف تمام المعرفة أنهم ليسوا بالذين يرفضون – فى الواقع العملى – التنازل للدولة عن أهم ما تطلب منهم التنازل عنه فى سبيل الحفاظ على مقومات الحكم ، وإن تمسكوا فى قوة بعد ذلك بالمبادئ التى أنشئت عليها المسيحية القديمة . ولاحظ أن الاضطهادات لم تفشل فحسب ، وإنما أدت إلى اضطراب خطير فى الحياة العامة : فالعداوة التى أظهرها الشعب فى سابق العهود تجاه المسيحيين لم تعد بذات موضوع بعد أن تكاثروا وتعارفوا بالمجتمع وأصبحوا يعيشون عيشة الناس جميعاً . وعلم بثاقب فكره أن الكنيسة تشكل قوة نشطة غاية فى النشاط ، وأن سائر الحكام الذين قاوموها قد وقعوا فى شر أعمالهم . وأخيرًا ، فقد نمى إليه أن منافسه « ماكسانس » كان يدعم قوى جنده الوافر العدد الشديد البأس بتأييد سائر الآلهة الوثنية الذين أقام لهم الصلوات وذبح لهم الأضاحى ؛ بل نمى إليه أيضاً أن هذا الأمير نفسه كان يستعين بالسحر والسحرة .

فلم يبق لقسطنطين إلا أن يستعين بالمسيح .

ولعل الرغبات التى صبت إليها نفسه والآمال التى عقدتها قد تجسمت له جميعًا فى صورة رؤى أو تهيؤات ، تحددت معالمها بعد ذلك عندما أراد روايتها للناس . وعلى أى حال ، فقد انتصر على منافسيه ، وظن أن فى انتصاره فضلاً للمسيح . واجتمع له من عرفان الجميل والإيمان وحسن التدبير السياسى ما أوحى إليه عام ٣١٣ بمرسوم ميلانو ، ذلك المرسوم الذى أفسح مكاناً لإله المسيحيين بين آلهة الدولة المعترف بهم ، والذى أراد أن يجعل جميع الأديان متساوية فى الدولة ، على أساس حرية الضمير . غير أن الكنيسة ، فى الواقع ،

لم تكن لترضى بمثل هذا الحل ، ولم تكن الدولة لتستطيع الصمود على موقفها الذى أراده لها قسطنطين بمرسوم ميلانو .

(حـ)

وكانت الكنيسة المسيحية قد اضطرت ، بحكم تطور الظروف وبحكم شعورها العملى بواقع الحياة ، إلى التنازل عن شىء من تعصبها وحزمها . أمام متطلبات المجتمع . غير أنها لم تتنكر فى سبيل ذلك لمبادئها : فقد كانت تظن نفسها مودعاً للحقيقة الإلهية وتنظر إلى كل وثنى وكأنه عميل للشيطان . لذلك بدت لها فكرة المساواة مع الوثنية مسبة ليس بعدها مسبة ، ولم تخضع لها إلا مضطرة كارهة . وعلى أى حال ، فلم يكن هناك داع يدعوها إلى أن تكف عما دأبت عليه من امتصاص لباب العقائد الوثنية وإفراغها منه ، مادامت تجد فى ذلك صلاح أمرها . وكانت الدولة من ناحيتها لا تستطيع التخلص من التقليد القديم الذى يفرض الارتباط بين الوطن وبين الدين . وكذلك كان الصالح العام يبدو وكأنه يستلزم سيطرة الحكومة التامة على الخلافات التى لابد لها من أن تنشأ عن تنازع الأديان ، وأن يكون عدم تحيزها مرتبطاً بحياد مطلق . غير أن الحكام لم يكونوا محايدين ، بل لم تلبث قوى المسيحية ، التى ضاعفها الانتصار ، أن جرفتهم فى تيارها وملكت عليهم أمورها ؛ وأغراهم رجال الاكليروس بالتدخل فى شئون الكنيسة الخاصة رغم معارضتهم بعض المعارضة ، وحصلوا منهم على امتيازات عديدة ، وأشركوهم فى الاهتمام بنجاح دعوتهم .

ومنذ نهاية عهد قسطنطين أصبح من المحتمل وقوع الاتحاد بين الكنيسة

والدولة ، وتغلب المسيحية التام على الوثنية ، والقضاء على الثانية برضاء الدولة ، بل بمساعدتها إن اقتضته الظروف ذلك . إلا أن هذا الأمر الذى تم تحقيقه خلال القرن الرابع ، تأخرت بعض مراحله : ولم يكن السبب فى ذلك راجعًا إلى الكنيسة التى لم تلبث أن تعودت وجوب معاونة الدولة لها فى معركتها ضد البدع والوثنية ، غير مدركة أنها كانت تدفع بنفسها إلى طريق الخضوع هى الأخرى لسلطان الحاكمين المطلق ؛ ولكن التأخر أتى من تولى بعض الأباطرة — أمثال جوليان الذى كره المسيحية ، أو فالنتينيان الذى أراد فى إخلاص حفظ التوازن بين المسيحية وبين الأديان الأخرى — فقاوموا تيارها المندفع . وفى عهد تيودوز وصلت المسيحية إلى نهاية الشوط من أغراضها ، إذ أصبحت دين الدولة الوحيد ، وذلك بفضل جهود القديس أمبرواز أسقف ميلانو وهو أول رجل عرفته الكنيسة[1] .

ولا شك أن الوثنية لم تتلاش دفعة واحدة ، ولكنها لم تظهر سوى مقاومة هزيلة غير منسقة أمام هجمات الكنيسة المتوالية فى انتظام ، وأمام الحماس الصاخب لدى بعض الأساقفة والقسس الذين خصصوا كل حياتهم لمطاردتها أنى وجدت . وضعف أمر الوثنية لأنها فقدت تأييد الحاكمين فافتقرت إلى القيادة الموحدة وتشتت أنصارها فرقاً اختصت كل واحدة منها بعبادة معينة ؛ ثم صنعت أيضاً ، وعلى الأخص ، لأن أكثر أنصارها عنادًا كانوا يختلفون فى نظرتهم إليها اختلافاً كبيرًا فى غالب الأحيان ، فلا يشعرون بروح التضامن فيما بينهم عند محاولة الدفاع عنها .

وكانت الطبقات الأرستقراطية فى المدن الرومانية القديمة ، وعلى الأخص

(١) انظر كتاب بواسيه : « نهاية الوثنية » ، المطبوع بباريس عام ١٨٩٤ فى جزأين .

روما نفسها ، تتعلق بالشعائر العملية من أديانها أكثر من تعلقها بالمعتقدات ذاتها ، معتبرة أن تلك الشعائر عنصر من عناصر التقاليد العائلية الموروثة لا يمكن فصله عنها . ولم يكن الإعجاب بماضى الوطن واحترامه ليقعا حقيقة إلا فى الإطار نفسه الذى شاهد وقائع هذا الماضى المجيد . وكانت هاتان العاطفتان تشكلان نوعاً من الديانات القوية ، إذ كانتا مرتبطتين بشرف النسب وشرف سلالة أبطال العهود الماضية ؛ ثم كانتا ، فى حد ذاتهما عاطفتين جديرتين بالتقدير ، ولا يمكن النيل منهما مباشرة . هكذا مثلا كنا نرى أميرًا مثل توكسوسيوس ، الذى تزوج من باولا ، يؤمن بأنه يجب عليه التمسك بوثنيته لزعمه الانتساب إلى إينيوس جد الرومان .

وكانت جوانح الكثير من هؤلاء الأرستقراطيين تنطوى على عقيدة تبلغ من العمق والإخلاص مبلغاً بعيداً . وقد عبر عنها أحدهم ، وهو المحافظ سيماك ، فى تقرير له يطلب به ، عام ٣٨٤ ، إعادة إقامة تمثال قديم لآلهة النصر كان الإمبراطور جراسان رفعه فى العام السابق من قاعة اجتماعات مجلس الشورى الرومانى . وتلك العقيدة هى القائلة بأنه من الخير للناس عدم التنكر لتقاليد دينية أثبت الزمن فاعليتها . وكان سيماك يشرح فى تقريره المذكور كيف عاشت الجمهورية حياة خصب وازدهار فى ظل آلهة الأجداد ؛ ثم كيف طرأت عليها الفتن والمحن وتهددتها المخاطر عندما ضعف إيمان الناس بآلهة وطنهم . وهذا برهان ضعيف المنطق ولا شك ، إلا أنه كان برهانا عاطفيًّا لا يحتاج إلى قوة المنطق ليقنع الناس . فلما استولى ألاريك على روما عام ٤١٠ ، ارتفعت من صفوف الوثنيين الذين حافظوا على قوميتهم صرخة قوية ضد المسيحية ؛ وحاول القديس أغوسطين بكل جهده أن يهدئ من آثار تلك الثورة ، وكتب فى سبيل ذلك

مؤلفه المعروف « مدينة الله » .

ولنضف هنا أن المبدأ الأصيل فى المسيحية ، مبدأ المساواة ، لم يكن ، مهما اتخذ من حيلة فى مراحل تطبيقه ، لم يكن ليغرى فى قليل أو كثير رجالاً حافظوا على شىء من الاعتداد القديم بـ « العائلات » المؤصلة الكبيرة ؛ وكانت إطاعة الأسقف « الذى قد يأتى من أدنى طبقات الناس » ، بالنسبة إليهم ، أمرًا عجبًا .

غير أن هذه المقاومة انهارت شيئًا فشيئًا لأسباب عدة ، منها : أن طوائف الأرستقراطية . وأعنى بذلك أنها كانت تظهر إعجاباً ، تتغلب فيه أمام تنكر الحاكمين المتزايد لأصحابها ؛ وأن الإيمان بالتقاليد الموروثة أيسر انهزاماً فى النهاية من العقيدة الدينية الحقيقية – ولم تعد مثل هذه العقيدة الدينية الوثنية توجد لدى هؤلاء الأرستقراطيين إلا بصفة استثنائية[1] ؛ ثم إن محن الدهر ، وخاصة خلال القرن الخامس ، دعت بالكثير منهم إلى حياة الزهد ، تلك الحياة التى تتفق كل الاتفاق مع المسيحية وإن لم تختص بها ، والتى ازدهرت ونمت خلال ذلك العصر بالذات فى صورة الترهب ؛ وأخيرًا : فإن السيدات من طبقة النبلاء لم يلبثن أن جذبتهن إليها روح التصوف والزهد التى شرحها لهن رهبان امتازوا بالحماس وحسن الحديث . وإنا لنجد أسمى الأمثلة من المسيحيين بروما ، حوالى نهاية القرن الرابع ، فى شخصيات : ميلانى ، وباولا وبناتها ؛ وكن من صفوة سيدات المجتمع الرفيع ، دفعهن إيمانهن الملتهب إلى الابتعاد عن

---

(١) وإنا لنرى أن أجدر هذه الاستثناءات بالاهتمام هو المثل الذى تعرضه علينا شخصية برتيكستاتوس ، وكان موظفا من كبار الموظفين خلال النصف الثانى من القرن الذى نتحدث عنه ، وعالماً مقتنعاً بعلم اللاهوت ، وقسا مخلصاً لعبادات متعددة .

هذه الحياة الدنيا ليعشن حياة الزهد ثم ليرحلن فى النهاية إلى فلسطين ، الأولى برفقة الراهب روفين ، والأخريات يصحبهن الراهب جيروم .

وبالإضافة إلى أرستقراطية الدم ، كانت هناك أرستقراطية الفكر التى رفضت رفضاً طال أمده أن تنضم إلى المسيحية ، بل تظاهرت بتجاهلها لهذا الدين فى كثير من الأحيان . وكان الإيمان بالتراث الهيليني يحل لديها محل التقاليد العائلية التى اعتمدت عليها الطائفة الأولى من الطوائف الأرستقراطية ، إن لم تنتظم فى حزب سياسى ، فلا قوة لها العاطفية على الروح الجمالية ، بالأدب والفكر اليونانى . ولما كانت الثقافة الهيلينية فى الواقع مشربة تماماً بالوثنية ، فلا غرو أن بدت لهم مرتبطة ارتباطاً لا انفصام له بالاحترام التقليدى للأساطير القديمة وآلهة الأجداد . وعلى أى حال فإن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة كانت قد تطورت – تحت تأثير بورفير وجاميليك على الأخص – إلى نوع من التأليف الواسع النطاق ، تتجاوز فيه الميتافيزيقا مع علم اللاهوت وتعاليم « الأسرار » ، فييسر للفكر جميع الأساليب اللازمة لتفسير الأساطير أو الإعلاء من مفهوم الآلهة . وإن « الأسرار » نفسها ، التى لم تنقرض العبادات الخاصة بها ، قد أضفت على هذا التأليف المتسع الأبعاد عاطفيتها الحسية وآمالها وسلواها . غير أن وفرة العناصر الخصبة تؤدى فى بعض الأحيان إلى الخسران عندما ينوء كاهل الإنسان بكل تلك المفاهيم فلا يستطيع التمتع بها إن لم يسيطر عليها . وفى حالتنا هذه : اختلط الأمر على الناس فلم يعودوا يميزون بين العدد العديد من التصورات ، والعقائد والنظريات ، والرموز ، والعبادات العملية ، والتقاليد ، ولم يقدروا على جمعها فى دين واحد صحيح . وقد حاول البعض ذلك ، مثل الإمبراطور جوليان ، فلم يصلوا إلا إلى ضرب من ضروب التقوى الشاملة ، لا

نشك فى إخلاصهم لها ، ولكن لا مناص لنا من وصفها بالغموض والإبهام وبأنها كانت تقوى شخصية فحسب لا يمكن القيام بنشرها بين النامس ، حيث كان كل فرد يختار من المادة الدينية المتراكمة أمامه ما يناسب مزاجه ، ليَصنع منه الدين الذىَ يراه . وأقصى ما وصل إليه الأمر كان إنشاء « مدارس » فلسفية . ولكن تلك المدارس لم يكن لها من الانسجام ولا من التهاب الإيمان المنتشر ما كان للكنائس المسيحية . لذلك لم يلق الإمبراطور جوليان أى قسط من النجاح عندما حاول خلال عهده القصير (من عام ٣٦٠ الى عام ٣٦٣) ، أن يحيى العبادات القديمة .

وكان « المرتد » (أى جوليان) ، تقيًّا مخلصًا لتقواه ، وهيلينيًّا متعصبًا للتراث اليونانى ، ولكنه كان بعد ذلك فيلسوفاً غامض الفكر ، لا تستطيع نظرياته التأليفية أن تفرض نفسها كعقيدة قوية ، وهى التى جمعت من أشتات لا انسجام بينها حول عقيدة نأليه الشمس باعتبارها مركز الكون . وقد عبر بنفسه فى حماس دافق وفى شىء كثير من البراعة الفكرية عن كراهيته العنيفة لـ « الناصريين » . إلا أن روحه السفسطائية كانت قاصرة عن لم شعث معتقداته فى صورة يستطيع بها القضاء على التفكير المسيحى ؛ وكذلك كان تدبيره السياسى قاصرًا ، برغم جهوده المتعددة ، عن استخلاص كنيسة كبرى وهيئة إكليروس قوية من بين أشتات رجال الدين والعبادات المتباينة فى كل تلك الديانات التى أراد توحيدها ؛ بل اضطرته الظروف إلى محاولة تأسى خطى المسيحية ، ولكنه لم يبلغ فى ذلك شوطاً بعيدًا ؛ إذ كانت ديانة المسيح فى ذلك الحين قد انتهت من تأليف جميع العواطف الدينية الحية والتقاليد التى تفترضها ، وأصبحت هى المعبرة الكبرى عنها . لذلك يمكننا القول بأن محاولة

جوليان قامت فى زمن غير مناسب لها ، وأنها لم تتصف بالذكاء ، وإن صاحبها الإخلاص فجعلها جديرة بالتقدير . وقد تظاهر موظفو الإمبراطورية باحترام اقتراحات الحاكم الذى كان يشكو قلة إخلاصهم . أما المسيحيون فقد صمدوا له وتمسكوا بدينهم . ولكن الوقت لم يسمح لجوليان بالرجوع إلى وسائل القسر والقمع التى استخدمها ديوكليسيان ، ولا نشك أيضًا فى أنه كان عازفاً عن تلك الوسائل . لذلك لم يصب الكنيسة منه سوى بعض مضايقات غير ذات شأن ، وإن لم يقتصد رجالها فى إظهار كراهيتهم له والحمل عليه فى عنف عنيف .

وإنا لنرى الثقافة الهيلينية تضعف يوماً بعد يوم ، إذ لم تعد تنتج للناس إنتاجها السابق القوى ، وأصبحت تعيش على الماضى ؛ ثم لأن العقيدة المسيحية راحت تمتص فى صبر كل جوهر ظل حيًّا للفكر اليونانى . وكلما ازدادت هذه الثقافة ضعفاً ، كلما تلاشت مقاومة المفكرين فأقبلوا على اعتناق المسيحية . وكان جدلهم فيها من قبل ، ذلك الجدل الذى لم يهتم بأمره سوى أصحاب الثقافات الرفيعة ، يلجأ مضطرًّا إلى الأساليب الهادئة حتى لا يثير غضب السلطات الحاكمة ؛ وكان لا جدوى فيه أمام « وباء » الإيمان المنتشر ومدافعة المسيحيين المتعددة الجوانب فى توثبها الدائم . وظهرت ، خلال القرن الرابع والقرن الخامس ، مؤلفات جدلية لتدعيم المسيحية لا حصر لها تهدف إلى هدم كل ما يأتيه أصحاب الوثنية من برهان . وإننا لا نجد بين طياتها براهين أقوى أو أضعف من تلك التى قدمها المشركون ، إلا أنها امتازت بتجنب الوقوع فى مواقف التخلف ، وبمسايرة ظروف العصر ومقتضياته : فقد زعم المسيحيون المحافظة على كل ما يجدر المحافظة عليه من تراث الماضى فى سائر المجالات ، ولكنهم بعد ذلك وضعوا هذا التراث فى إطار التيار الدينى الأكبر والعاطفة

الإيمانية العامة ، وهما التيار والعاطفة اللذان لم يكن لهما بد من أن يجرفا رجال هذا العصر بين ثناياهما .

وجاءت أكثر ألوان المقاومة عنادًا من أهل الريف[1] المتعلقين بآلهتهم المحلية الصغيرة الخاصة بهم ، وبتقاليدهم العتيقة التى يدعمها إيمانهم بالسحر . وكان جفاء طبعهم الفطرى عاملا خطراً فى محاولات تبشيرهم ، بل كان من العسير إقناعهم إلا إذا استثيرت عقولهم بأعمال عنف جريئة ضد معابدهم وأصنامهم أو أشجارهم المقدسة وينابيعهم السحرية . وبعد أن انتشر الإيمان فى المدن ، وجد أن عونه الأكبر فى المناطق الريفية يكمن فى تلك الأديرة التى أنشئت فى مراكز تيسر لها العمل المباشر النشط ، وفى الكثير من الأحوال فرضت المسيحية نفسها عن طريق التسرب اليومى البطئ المترتب على الصلات بين المدينة والقرى ، وفى بعض الحالات الأخرى ، اتسم انتشارها بأعمال مفاجئة مثل تبشير قرية بأكملها أو مجموعة قرى فى يوم واحد ، وكانت فى غالب الأمر تسير على أسلوب « الأبدال » ، أى تحول لصالحها من الأساطير والخرافات السائدة ، معتمدة على عبادة القديسين لديها ، تلك العبادة التى يسرت كثيرًا من مهمتها التبشيرية : فتقيم تماثيل قديسيها محل الشخصيات الإلهية الصغيرة التى اعتادها الفلاحون وأحبوها حبًا جمًا لاعتقادهم بأنها تؤدى لهم العديد من الخدمات اليومية التى يطلبونها منها ، وهكذا بدت القرى وكأنها آخذة بأهداب المسيحية ؛ وتقدم العمل التبشيرى فيها كثيرًا فى نهاية القرن الخامس .

---

(١) كلمة « باجانوس » اللاتينية تعنى أصلا : « رجل الريف » . وقد أثبتت الأدلة أن عداء أهل الريف للمسيحية كان السبب فى تحول معنى كلمة « باجانوس » هذه من « رجل الريف » إلى « الوثنى » . ويبدو أن المعنى الأخير للكلمة نشأ فى النصف الأول من القرن الرابع وانتشر خلال النصف الثانى منه .

وعلى أى حال ، فقد كان من الممكن ، منذ البداية ، التنبؤ بما آلت إليه معركة العقائد التى ثارت فى الربع الأخير من القرن الرابع .

والنجاح الدائب للإيمان المسيحى فى المدن الكبرى والأوساط الرسمية ، وتنظيم الكنيسة فى مواجهة الأشتات المتفرقة من أعدائها ، ثم – وعلى الأخص – ذلك الحماس الحى الذى حملته المسيحية بين طياتها والديانات الوثنية القديمة تسير مندفعة فى طريق الفناء ، كل ذلك لم يكن سوى مجموعة من الظواهر تعلن انتصار الدين المسيحى وتمهد له .